إذن: فعلم الحق جل جلاله لا يغيب عنه شيء.

ثم ينقلنا الحق سبحانه وتعالى إلى صورة أخرى من صور المنافقين وما يفعلونه بالمؤمنين.. فقال جل جلاله:

﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ۙ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

واللمز: معناه العيب، ولكن بطريق خفى، كإشارة بالعين أو باليد أو بالفم أو بغير ذلك. إذن: فهناك مجموعة من المنافقين يعيبون فى المطّوعين لجمع الزكاة من المؤمنين، ومن هؤلاء المنافقين من يعيب بالقول، ومن يعيب بالفعل، ومن يعيب بالإشارة، والمطّوعون هم الذين يتطوعون بشيء زائد من جنس ما فرض الله.

فالله فرض مثلاً خمس صلوات، وهناك من يصلى خمس صلوات أخرى تطوعاً، وفرض الحق الزكاة اثنين ونصفاً بالمائة، وهناك من يصرف عشرة بالمائة تطوعاً، وفرض الحق صيام شهر رمضان، وهناك من يصوم فوق ذلك كل اثنين وخميس. وهذا ما نسميه دخول المؤمن فى مقام الإحسان؛ بأن تتقرب [1] إلى الله بما يزيد على ما فرضه الله عليك، من جنس ما فرضه الله.

---

(١) عن أبى هريرة قال قال ﷺ: « إن الله قال: من عادى لى ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلىّ عبدى بشيء أحب إلىّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدى يتقرب إلىّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها، وإن سألنى لأعطينه، ولئن استعاذ بى لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددى عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته ». أخرجه البخارى فى صحيحه (٦٥٠٢) وأحمد فى مسنده (٢٥٦/٦).

وأنت إن أديت المفروض تكون قد التزمت بالمنهج ، وقد سأل رجل رسول الله ﷺ عن فرائض الإسلام ثم قال : لا أزيد ولا أنقص ، فقال الرسول الكريم : « أفلح إن صدق »[١].

والزيادة على ما فرضه الله ، ومن جنس ما فُرِضَ يكون لها ملحظان :
الأول : أن العبد يشهد لربه بالرحمة ؛ لأنه كُلِّفَ دون ما يستحق .
والملحظ الثاني : هو أن عمل الطاعة قد خفّف على المؤمن فاستراح بها . ألم يقل رسول الله ﷺ عن الصلاة : « أرحنا بها يا بلال »[٢].

إذن : فالمطوِّع هو الذى يزيد على ما فرض الله عليه من جنس ما فرض الله ؛ وهؤلاء هم المحسنون ؛ الذين قال الحق عنهم فى سورة الذاريات :

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلاً مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) ﴾ [الذاريات]

فالمنهج لا يلزمنى بأن أنام قليلاً من الليل وأقضى بقيته فى الصلاة ، ولم يلزمنى أحد بالاستغفار فى الأسحار[٣]. ولم يقل الله سبحانه فى هذه الآية إن فى المال حقاً معلوماً ؛ لأن الإنسان المؤمن هنا يعطى بأكثر مما فُرِض. وعندما يتطوع مؤمن ويزيد على ما فرض الله ، أيستحق أن يُذَمَّ ويُعَابَ ويُلْمز ؟ أم أنه يستحق أن يُكرَّم ويُقدَّر ؟ ولكنه اختلال موازين المنافقين فى

(١) عن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ من أهل نجد ثائر الرأس يسمع دوى صوته ولا يفقه ما يقول حتى دنا ، فإذا هو يسأل عن الإسلام . فقال رسول الله ﷺ : « خمس صلوات فى اليوم والليلة » . . . حتى ذكر صيام رمضان والزكاة . قال طلحة : فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على هذا ولا أنقص . قال رسول الله ﷺ : « أفلح إن صدق » . أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦) ومسلم (١١) .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) الأسحار : جمع سحر . وهو آخر الليل قبيل الصبح .

الحكم على الأشياء. لذلك اعتبروا الحسنة نقيصة ، تماماً كالذى يُخرج ماله للفقراء ، ونجد من يسخر منه بالقول عنه « إنه أبله » ، مع أن المؤمن حين يتصدق كثيراً ؛ فهو يشيع فائدة ماله فى المجتمع ، وهو الأكثر ذكاء منهم ؛ لأنهم أنفقوا المال على أنفسهم فَأَفْنَوْه ، بينما تصدق هو به فأبقاه.

وقول الحق سبحانه وتعالى:

﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ ﴾ لها واقعة ، فقد هاجر عبد الرحمن بن عوف إلى المدينة ، وترك أمواله وكل ما يملك فى مكة ، وآخى رسول الله بين المهاجرين والأنصار ، فجعل لكل رجل من الأنصار رجلاً من المهاجرين يشاركه فى ماله.

ولما جاء عبد الرحمن بن عوف قال له أخوه من الأنصار (١) : أقاسمك مالى . قال : بارك الله لك فى مالك ، دُلَّنى على السوق . وذهب إلى السوق . وبارك الله له فى تجارته . فكان يقسم ربحه نصفين نصفاً للصدقة ونصفاً لأهله . وقد جاء عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، وقال: يا رسول الله اكتسبت ثمانية آلاف درهم أقرض الله أربعة وأبقى لأهلى أربعة ، فقال له رسول الله ﷺ : « بارك الله لك فيما أقرضت وفيما أبقيت ». وحينما مات عبد الرحمن بن عوف أحصوا ثروته ، وحدث خلاف فى تقديرها ، وأراد الورثة أن يسترضوا زوجته الرابعة ، وكان اسمها « تماضر» بأن يعطوها ثمانين ألف درهم ، ولما كانت تماضر واحدة من أربع نساء ، والنساء الأربع يرثن ثُمُنَ الثروة ، أى : أن قيمة الثروة كلها على أقل تقدير بلغت مليونين وخمسمائة وستين درهماً. وكان عبد الرحمن لا يتاجر إلا فى ماله.

(١) آخى رسول الله ﷺ بين عبد الرحمن بن عوف وسعد بن الربيع الخزرجى الأنصارى . انظر : سيرة النبى لابن هشام (٢/ ١٢٥) .

فلما بلغ المنافقين ما تصدق به عبد الرحمن بن عوف قالوا: ما تصدق عبد الرحمن إلا رياء وسمعة . وهل الرياء يطلع عليه الناس أم يعرفه الله وحده ؟ وجاء عاصم بن عدى ، وكان صاحب بستان أعطى ثمراً كثيراً ، فجاء بمائة حمْل من التمر وتصدق بها ، فقال المنافقون : والله ما فعل عاصم هذا إلا رياء . وجاء رجل يُدْعَى أبا عقيل الأنصارى إلى رسول الله ﷺ وقال : يا رسول الله ، لقد بتُّ ليلتى أعمل ، وأخذت أجرى صاعين من التمر ، احتفظت لأهلى بصاع وجئتك بصاع لأتصدق به . قال المنافقون : تصدق بصاعٍ من التمر ، الله ورسوله غنى عن صاعك يا أبا عقيل .

هم إذن قد عابوا على عبد الرحمن بن عوف الذى تصدق بالكثير وقالوا هذا رياء ، وعندما جاء عاصم بن عدىّ قالوا : يرائى بالتصدق بنصف ثمار حديقته ، وعندما جاء من لا يملك إلا صاع تمر يتصدق به قالوا : الله ورسوله غنى عن تمرك ، لقد سخروا ممن أعطى الكثير ، وسخروا ممن أعطى القليل . وكان يجب أن يُمدَح المتصدقون ولا يُسخَر منهم ؛ لأن كلاًّ منهم تصدق على قدر طاقته ، وهم أعطوا منه فضل ما أعطاهم الله ؛ قلَّ أو كثُر [1] .

ولذلك فمَنْ يسخر من هؤلاء المؤمنين ؛ لابد أن يُلاَمَ على الخُلق السيىء الذى تمثل فى مقابلة السلوك الإيمانى بالسخرية والاستهزاء ، ولذلك كان جزاء الساخرين أن سخر الله منهم ، وجعل لهم عذاباً أليماً . والسخرية هى الاستهزاء بفعل شخص ما . وهؤلاء المنافقون حين يسخرون من المؤمنين ، فسخريتهم لم تتجاوز عدم رضاهم عمَّنْ فعل الخير ، وهم بسخريتهم لم يستطيعوا إلا الإيذاء المعنوى للمؤمنين المتصدقين ، ولكن حين يسخر الله ؛

(١) عن أبى ذر قال قال لى النبى ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق» . أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٦٢٦) وأحمد فى مسنده (٥/ ١٧٣) .

فهذه أولاً عدالة الجزاء لأنها من جنس ما فعلوا ، ولكن هل سخرية الحق سبحانه وتعالى تقتصر على عدم الرضا أم أن هناك جزاء ؟

هناك جزاء من الله . وإذا كان الجزاء يتفاوت بتفاوت قدرة الساخر . فهناك فارق شاسع بين قدرات الله وقدرات البشر . والذين سخروا من المؤمنين حين تصدقوا بالقليل الذى يملكونه ؛ تصدى الله سبحانه وتعالى ليرد عليهم وعلى سخريتهم . ويريد الحق بذلك أن يعطينا صورة عن كيفية دفاعه عن المؤمنين المخلصين فى إيمانهم . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الحق تبارك وتعالى ، هو الذى سيعاقب المنافقين ، فالعقاب سيكون أليماً مهيناً .

وقلنا من قبل : إن الذى يخطىء فى حق غيره ، فهذا الغير يرد الخطأ بعقاب على حسب قدرته . ولكن إن عفا عنه ، نقول لمن أخطأ : لا تعتبر هذا العفو لصالحك ، بل هو عكس ذلك تماماً ؛ لأن الذى يعفو إنما ترك الحكم لله ، وسوف يكون عقابك لا قدر قوة وطاقة مَنْ عفا عنك ، ولكنه ترك عقابك لله ، وسيكون عقابك على قدر قدرات الله .

إذن : فالذى ينتقم ويرد على من أخطأ فى حقه ، إنما يأخذ على قدر قُوَّته ، وأما الذى يعفو فهو يأخذ على قدر قدرات الله ، وهناك مرتبة أعلى من ذَلك جعلها الله سبحانه وتعالى للمذنب ، والذى وقع الاعتداء عليه ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى رب الاثنين : فإن أساء إليك إنسان قد ترد عليه الإساءة بطاقتك ، وقد تعفو فيرد الله عليه بقدرته وطاقته.

ولكن خير من ذلك أن تحس أن الذى أساء إليك فى حقيقة الأمر قد أحسن إليك ، مع أنه لم يقصد ذلك ، كيف ؟ إذا دخلت بيتك ووجدت أحد أبنائك قد ضرب أخاه وأساء إليه ، مع من يكون قلبك وعطفك ؟ إن قلبك يكون مع الذى اعتدى عليه وأسىء إليه فتحاول أن ترضيه ، وتأتى إليه بهدية أو تعطيه مبلغاً من المال ، أو غير ذلك من أنواع الإرضاء ، وقيل : من آداب دينك - الإسلام - أن تحسن إلى مَنْ أساء إليك ؛ لأنه

يقدم معروفاً دون أن يقصد . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى يطلب منك أن تعفو عمن أساء إليك. ويقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ وإذا سمعت فعلاً من البشر يقابله فعل من الله ، إياك أن تفهم الفعل من الله كما فهمت فعل البشر ، فحين يقول سبحانه :

﴿ وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ... (٥٤) ﴾ [آل عمران]

وحين يقول: ﴿ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ ... (١٤٢) ﴾ [النساء]

هنا نجد فعلاً من صنع الله ، وقد نرى من البشر من يفعل نفس الفعل ، لكن نحن المسلمين نأخذ الفعل من الله على غير الفعل من البشر.

وعلى سبيل المثال : إذا جئنا لقول الله : ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ﴾ المكر هو التغلب بالحيلة على الخصم ؛ بأن توهمه أنك تفعل له خيراً ، بينما أنت تضمر له الشر ، كأن تحفر حفرة كبيرة مثلاً وتغطيها ببعض الحشائش والزهور ، ثم تطلب من خصمك أن يأتى لك بزهرة ، فيسقط فى الحفرة وتتكسر عظامه.

إذن: فأنت قد كدْتَ له كَيْداً خَفِياً . والكيد والمكر لا يَدُلان على القوة ؛ إنما يدلان على الضَعف ؛ لأن الشَجاع القوى هو الذى يجاهر بعدائه ؛ لأنه قادر على عدوه ، لكن الضعيف هو الذى يستخدم الحيلة والمكر ليوقع بخصمه . ولذلك نجد الحق سبحانه وتعالى يقول فى النساء:

﴿ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ (٢٨) ﴾ [يوسف]

وما دام كيدهن عظيماً ، فضعفهن عظيم ؛ لأن الضعيف هو من يكيد ، ولكن القوى لا يعجزه طلب خصمه ويقول له : اذهب حيثما شئت ، وسآتى بك عندما أريد ، لايوجد مكان تهرب فيه منى ، إنما الضعيف إذا تملك من خصمه فإنه يقضى عليه تماماً ؛ لأنه يعرف أنها فرصة لن تتكرر.

ولذلك قال الشاعر :

وَضَعِيفَةٌ فإذَا أصَابَتْ فُرْصة   قتلتْ كذلكَ فُرْصَةُ الضُّعفَاء

أما القوى فإنه يقدر ويعفو ؛ لأنه يعرف أنه يستطيع الإتيان بخصمه وقتما يشاء.

والأصل فى المكر هو الشجرة الملتفة الأغصان كأنها مجدولة ؛ بحيث لا تستطيع أن تميز الورقة التى تراها من أى فرع نبتت ، فيلتبس عليك الأمر، كذلك المكر تختلط عليك الأمور بحيث لا تعرف أين الحقيقة . وأنت تمكر بقدر تفكيرك وعقلك ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حين يجازيك بمكرك يكون الجزاء رهيباً ؛ لأن مكرك مفضوح عند الله ، ولكنك لا تعرف شيئاً مما أعدَّه الله لك.

ولقد نصر الحق سبحانه وتعالى رسوله ﷺ فى الأمور العلنية فى المعارك ، ونصره أيضاً فى كل أمر مكروا فيه وبيّتوه له . وعلى سبيل المثال ، حين وقف الكفار على باب بيت رسول الله ﷺ ليقتلوه فى ليلة الهجرة . أوحى له ربه أن : اخرج ولا تَخْشَ مكرهم ، فخرج ﷺ ليجدهم نياماً وهم واقفون ، أعينهم مفتوحة ولكن لا تبصر . ويخرج ﷺ من وسطهم. ويأخذ التراب، ويلقيه عليهم وهو يقول: «شاهت الوجوه»[1] .

وعندما يبتعد ﷺ عن المكان يستيقظون مرة أخرى ، ويتعجبون كيف أفلت منهم . وقد أراد الحق سبحانه أن يعلموا أنهم لن يستطيعوا النَّيْل من رسول الله ﷺ ، لا بالمعارك المفتوحة ولا بالمكر الخفى .

وقوله تبارك وتعالى : ﴿ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ﴾ تعرف منه أن سخرية الله جاءت جزاءً لهم على سخريتهم ، والساخر من البشر لا يتجاوز

(١) ورد قول رسول الله ﷺ هذا فى حديث الهجرة عن ابن عباس عند أحمد فى مسنده (١/ ٣٦٨) ، وكذلك فى غزوة حنين فى صحيح مسلم (١٧٧٧) من حديث إياس بن سلمة عن أبيه ، وأحمد فى مسنده (١/ ٢٨٦) والدارمى فى سننه (٢/ ٢١٩) من حديث أبى عبد الرحمن الفهرى .

فى فعله أكثر من العيب فى غيره. ولكن سخرية الله تتجاوز إلى العذاب. ولذلك قال الحق سبحانه: ﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ وهذا هو التميُّز فى فعل الله عن فعل البشر، فالذين سخروا من المؤمنين عابوا عليهم ما فعلوه، يسخر منهم الحق يوم القيامة أمام خلقه جميعاً، ثم يزيد على ذلك بالعذاب الأليم.

لقد عرفنا من قبل أن هناك عذاباً أليماً، وهناك عذاب عظيم، وعذاب مهين، وكلها صفات للعذاب، فالعذاب هو الإيلام، ولكن هناك من يفزعه الألم فيصرخ. وهناك من يحاول أن يتجلد ويتحمل؛ لأن كبرياءه يمنعه أن يصرخ، وفى هذه الحالة يكون عذابه مهيناً؛ لأنه بكبريائه تحمَّل الألم؛ فيُهَانُ فى كبريائه وبذلك يكون عذابه مهيناً.

والعذاب قد يأخذ زمناً طويلاً أو قصيراً، وهناك عذاب عظيم فى الإيلام وعظيم فى الإهانة. والعذاب العظيم فى الإيلام؛ أى مبالغ فيه من ناحية الألم. والعذاب العظيم فى الإهانة مبالغ فيه من ناحية الإهانة. والعذاب العظيم فى الوقت مبالغ فيه من ناحية الزمن، ولذلك يقال عنه «عذاب مقيم» أى: يأخذ الزمن كله لا يتوقف ولا يقل.

ثم يعرض الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى من صور تعامل رسول الله ﷺ مع المنافقين. ومع أن رسول الله ﷺ يعرف المنافقين، وقد أعلمه سبحانه بأمرهم حين قال:

﴿ وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَاهُمْ ... (٣٠) ﴾ [محمد]

أى: بمجرد نظر رسول الله إليهم، وكأن على جبهة كل منهم توجد كلمة « منافق » وهو يعرفهم مصداقاً لقوله الحق:

﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ الْقَوْلِ ...(٣٠) ﴾ [محمد]

وبمجرد أن ينطقوا يعرفهم ﷺ من طريقة نطقهم . ولكن الله يريد أن يُخرج رسوله إلى المؤمنين به وبرسالته سليم الصدر [١] ، بدون انقباض عن أحد ، حتى يتجلى نوره على الجميع، ولعل شعاعاً من النور يمسُّ منافقاً ؛ فيتوب إلى الله ويعود إلى الإيمان الصحيح ، كما حدث لكثير من المنافقين ، فقد أعلن بعضهم التوبة وحَسُنَ إسلامهم.

ونحن نعرف أن رأس المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول ، كان سيُتوَّج ملكاً على المدينة [٢] . وأثناء الإعداد لمهرجان التتويج ؛ فوجئوا بوصول رسول الله ﷺ مهاجراً إلى المدينة . وكان هذا من أسباب حقد عبد الله بن أبيّ على رسول الله ﷺ فقد ضاع منه المُلْك . وكان لعبد الله بن أبيّ ولد أسلم وحَسُن إسلامه اسمه عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. وكان من حُسْن إسلام هذا الابن أنه ذهب إلى رسول الله ﷺ ؛ حين علم أنه ﷺ سيأمر بقتل أبيه ؛ لأنه قال في غزوة من الغزوات [٣] . ﴿لَئِن رَّجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ ...﴾ (٨) [المنافقون]

وكان ابن أبيّ يعني بـ « الأعز » المنافقين في المدينة ؛ وبـ « الأذل » المسلمين من المهاجرين والأنصار . ورد الله سبحانه بأن صدَّق على قوله أن الأعز سيُخرج الأذل ، فقال الحق سبحانه وتعالى:

﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ... ﴾ (٨) [المنافقون]

(١) وقد كان رسول الله ﷺ يحب هذا ، حتى أنه أوصى أصحابه فقال : « لا يبلغني أحد عن أحد من أصحابي شيئاً ، فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » الحديث . أخرجه أحمد في مسنده (١/ ٣٩٦) والترمذي في سننه (٣٨٩٦) وأبو داود في سننه (٤٨٦٠) .

(٢) أورد ابن إسحاق في السيرة أن قوم عبد الله بن أبي كانوا « قد نظموا له الخرز ليتوّجوه ثم يملكوه عليهم ، فجاءهم الله برسوله وهم على ذلك ، فلما انصرف قومه عنه إلى الإسلام ضغن ورأى أن رسول الله قد استلبه ملكاً ، فلما رأى قومه قد أبوا إلا الإسلام دخل فيه كارهاً مصراً على نفاق وضغن » سيرة ابن هشام (٢/ ٢١٦) .

(٣) هي غزوة بني المصطلق ، وقد كانت في شهر شعبان سنة ٦ هجرية . انظر سيرة النبي لابن هشام (٣/ ٣٣٤) .

فكأن الحق سبحانه وتعالى قد أقر على أن الأعز هو الذى سيخرج الأذل من المدينة ، ولكن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين ، إذن : فسيخرج المنافقون من المدينة ، وسيبقى فيها المؤمنون ، وتكون لهم العزة.

ولما علم عبد الله بن عبد الله بن أبىّ أن رسول الله ﷺ سيأمر بقتل والده عبد الله بن أبىّ ، ذهب إلى رسول الله ﷺ ، وقال : يا رسول الله إن كنت ولابد آمراً بقتل أبى فأمرنى أنا بقتله ؛ لأنى أخاف أن يقتله أخ مؤمن فأكرهه ، وأنا لا أحب أن أكره مؤمناً. [١]

وهكذا نرى قوة وصدق الإيمان ، وأراد رسول الله ﷺ أن يكرم ذلك المنافق من أجل ابنه فلم يأمر بقتله ، ومن بعد ذلك [٢] قال الابن : يا رسول الله استغفر لأبى ، أى : اطلب له من الله المغفرة ؛ ولأنه ﷺ يعلم أنه قد أرسل رحمة للعالمين ؛ لذلك طلب المغفرة لعبد الله بن أبىّ . وحينئذ نزلت الآية الكريمة :

﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾

---

(١) أورد ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله بن أبى لما بلغه ما كان من أمر أبيه أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت فاعلاً فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبرّ بوالده منى ، إنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله مؤمناً بكافر فأدخل النار ، فقال ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » . انظر تفسير ابن كثير (٤/ ٣٧٢) .

(٢) وذلك عندما توفى عبد الله بن أبىّ ، وأراد ابنه من رسول الله ﷺ أن يصلى عليه ، فاعترض عمر ابن الخطاب ، فأعطاه قميصه ليكفنه فيه وصلى عليه . انظر الحديث الآتى بعد فى البخارى (٤٦٧٠) ومسلم (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر .

ووقف العلماء فى هذه الآية عند شيء اسمه مفهوم المخالفة ؛ لأن الحق سبحانه وتعالى حدد مرات الاستغفار غير المقبول بسبعين مرة ، وقد أوضح رسول الله ﷺ الذى أرسلَ رحمة للعالمين ؛ أنه ما دامت مرات الاستغفار قد حُددت بسبعين مرة فَلأزيد على السبعين قليلاً [1] وبذلك غلّب الرسول الكريم جانب الرحمة ، وجانب الإكرام لعبد الله بن عبد الله بن أبى الذى أسلم وحَسُنَ إسلامه.

وكانت السبعة دائماً هى نهاية العدد عند العرب ، وعندما يأتى عدد آخر يكون زائداً ، فالأصل فى العدد هو مكررات الواحد ، أى : أن الواحد أصل العدد ، يضاف له واحد يكون اثنين ، ويضاف لهما واحد فيكون المجموع ثلاثة ، وتستمر الإضافة حتى يصير العدد سبعة ، وإذا تركنا الواحد جانباً لأنه الأصل ، نجد عندنا ثلاثة أعداد زوجية ، هى : اثنان وأربعة وستة ، وثلاثة أعداد فردية هى : ثلاثة وخمسة وسبعة ، ويكون العدد سبعة جامعاً للمفرد والمثنى والجمع.

ولذلك كانوا إذا أرادوا الزيادة على سبعة فلابد أن يأتوا بحرف العطف. ونجد قول الحق سبحانه وتعالى فى سورة الكهف:

﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ... ﴿٢٢﴾ ﴾ [الكهف]

ولم يقل : ثامنهم كلبهم ، بل جاء بواو العطف ؛ لأن الثمانية كانت من نوع آخر [2].

(١) قال ﷺ : «إنما خيَّرنى الله تعالى فقال : ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً﴾ وسأزيد على سبعين» أخرجه البخارى فى صحيحه (٤٦٧٠) ومسلم فى صحيحه (٢٤٠٠) من حديث ابن عمر.

(٢) انظر تفسير القرطبى (٥/ ٤١١٣) فى تفصيل هذه المسألة ، بين من قال : إن نهاية العدد عند العرب هو العدد ٧ . ومنهم من قال : إن هذا تحكم لا دليل عليه . ومنهم من سمى الواو بين السبعة والثمانية : واو الثمانية.

وحين سمع رسول الله ﷺ « السبعين » ؛ قال : نزيد على السبعين ، وبذلك يكون قد احترم قول الله ، واحترم تكريمه لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ ؛ الذى طلب منه أن يستغفر لأبيه . وهنا قالوا: كيف يغيب عن رسول الله ﷺ وهو الذى يقول عن نفسه : « أنا أفصح العرب بيد أنّى من قريش»[1] ، أن عدد السبعين يُقصد به الكثرة مهما بلغت ، والشاعر القديم يقول:

* أسيئى بِنَا أوْ أحْسِنى لاَ مَلُومةَ *

أى: افعلى ما تشائين.

فكأن الحق سبحانه وتعالى فى قوله: ﴿ **اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً** ﴾ شاء أن يأتى بمضاعفات العدد النهائية وهى السبعون ليحسم الأمر.

وجاء قول الحق سبحانه : ﴿ **سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ** ... (٦) ﴾ [المنافقون]

أى : مهما استغفرت بأى عدد من الأعداد فلن يغفر الله لهم.

ونقول: إن الأمر هنا له شقان ؛ الشق الأول: أن يغفر الله. والشق الثانى: هو مجاملة رسول الله ﷺ لعبد الله بن عبد الله بن أبيّ، فهو ﷺ يعلم أن الله لن يغفر للمنافقين. وفى استغفار رسول الله ﷺ إنما هو لاحترام طلب الابن ، وأيضاً فالاستغفار من رسول الله كان مجرد مجاملة لعلمه أن الله لن يغفر للمنافقين ؛ لأنه ﷺ يعلم أن استغفاره من أجل منافق لن يقبله الله ، وهناك استغفار تنشأ عنه المغفرة ، واستغفار ينشأ عنه إرضاء عبد الله بن عبد الله بن أبيّ. ولكن ألا توجد ذاتية للأب؟

(١) قال السيوطى فى « اللآلىء المصنوعة » : « معناه صحيح . ولكن لا أصل له ، كما قال ابن كثير وغيره من الحفاظ ، وأورده أصحاب الغريب ، ولا يعرف له إسناد » . انظر كشف الخفاء (١/ ٢٣٢) والأسرار المرفوعة (ص ٧٠ ، ٧١) .

نقول : إن التاريخ يقول إن عبد الله بن أبيّ نال حظه من الدنيا ، والحق سبحانه يقول : ﴿ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً (٣٠) ﴾ [الكهف]

وجزاء العمل يُعطى للبعض في الدنيا ، ويُعْطى للبعض فى الآخرة ؛ مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (٢٠) ﴾

[الشورى]

ولقد حدثنا علماء السيرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن أبا لهب يُخفَّفُ عنه العذاب يوم الاثنين » ، وأبو لهب نزل فيه قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ (٢) سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ (٣) ﴾ [المسد]

ولماذا يُخفَّف العذاب عن أبى لهب يوم الاثنين ؟ لأن هذا اليوم هو الذى ولد فيه رسول الله ﷺ ، وقد سُرّ أبو لهب بميلاد الرسول الكريم ، فأعتق الجارية التى بشَّرته بميلاد الرسول ؛ ومن هنا يُخفَّف العذابُ عن أبى لهب يوم الاثنين جزاء عمله .

كما أن عبد الله بن أبيّ كان له موقف يحسب له فى واقعة الحديبية حين ذهب المسلمون لأداء العمرة ، وصدهم الكفار عن بيت الله الحرام ؛ وانتهت بصلح الحديبية وهى أول معاهدة بين الإيمان والكفر ، ورغم أن رسول الله ﷺ وصحابته رُدُّوا عن بيت الله الحرام ، فقد فطن أبو بكر لما فى يوم الحديبية من عطاءات الله ؛ من اعتراف كفار قريش بمحمد وبالمسلمين حين وقعوا معاهدة بينهم وبين رسول الله ﷺ ، وتفرغ نبينا الكريم للدعوة فى الجزيرة العربية ، وهو آمن من قريش ، وانتشر الإسلام إلى أن نقضت قريش العهد وتم فتح مكة .

نعود إلى قصة عبد الله بن أبيّ يوم الحديبية : لقد كان الكفار يعلمون أن في نفسه شيئاً من رسول الله ﷺ ؛ لأن مجيء الرسول ﷺ منع تتويج عبد الله بن أبيّ ملكاً على المدينة . وكانوا يعلمون أيضاً أنه أسلم نفاقاً ؛ فأرادوا أن يُحدثوا ثغرة في نفوس المسلمين ، فقالوا : محمد وأصحابه لا يدخلون ، ولكننا نسمح لعبد الله بن أبيّ ومن معه بدخول مكة وأداء العمرة فرفض عبد الله بن أبيّ وقال : إن لي في رسول الله أسوة حسنة ، لا أريد أن أذهب للعمرة إلا إذا ذهب رسول الله ﷺ . وهذا موقف يُحمد له .

كذلك كان له موقف آخر في غزوة بدر ، حينما أُسر العباس عم رسول الله ﷺ . وكان العباس طويل القامة وثيابه تمزقت في المعركة ، فلم يجدوا طويلاً مثله إلا عبد الله بن أبيّ ، فأعطاهم قميصه ليلبسه العباس ، فلم ينْسَ رسول الله ذلك له .

ومن أجل هذا استغفر له رسول الله ، لكن الحكم الأعلى قد جاء ﴿ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ﴾ فليس المهم فقط هو استغفار رسول الله ؛ لأن هناك ممحصات للذنب ، فمن أذنب عليه أن يأتيك أولاً يا رسول الله ، ليستغفر الله ، ثم يسألك أن تستغفر له الله ، حتى يجد الله تواباً رحيماً ، فسبحانه القائل :

﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا (٦٤) ﴾ [النساء]

فالذي يريد أن يتوب ويستغفر ، لا يستغفر له رسول الله ﷺ ، إلا إذا استغفر مرتكب الذنب أولاً ، فلا بد أن يستغفروا الله من الذنوب أولاً ثم يستغفر لهم الرسول . ولا يستغفر لهم الرسول وهم لا يستغفرون ، وهكذا نعلم أن عبد الله بن أبيّ لم يفطن إلى كيفية الاستغفار ، فقد كان عليه أن

يأتى لرسول الله صاغراً ليستغفر الله أمامه ، لا أن يبحث عمن يطلب له الاستغفار.

ثم يأتى الحق سبحانه وتعالى موضحاً سبب عدم غفرانه ، فيقول:

﴿ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ وحين ينفى الحق سبحانه وتعالى الهداية عن إنسان ، فليس معنى هذا أن يقول الفاسق: الله لم يَهْدنى فماذا أفعل ؟ ويُحمِّل المسألة كلها لله . بل نسأل الفاسق : لماذا لم يَهْدِك ؟ لأنك فسقت.

إذن: فعدم الهداية من الله لك كان بسبب أنك أخذت طريق الفسق والبعد عن منهج الله ، ومن هنا فالهداية المقصودة فى هذه الآية ؛ ليست هى الهداية بمعنى الدلالة على طريق الخير ؛ لأن الدلالة إلى طريق الخير تأتى من الله للمؤمن والكافر ، فمنهج الله الذى يُبلَّغ للناس كافة ، يريهم طريق الخير ويدلهم عليه . ولكن المقصود هنا هو الهداية الأخرى التى يعطيها الحق لمن دخل فى رحاب الإيمان وآمن وحَسُنَ عمله ، وتتمثل فى قوله الحق:

﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧) ﴾ [محمد]

إذن: فكل مَنْ مشى فى طريق الإيمان أعانه الله عليه . وفى المقابل نقرأ قول الحق سبحانه وتعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠) ﴾ [الأحقاف]

و كذلك قوله سبحانه : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) ﴾ [التوبة]

وأيضاً قوله الكريم : ﴿ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٥) ﴾ [الصف]

لا نقول أبداً : إن هؤلاء معذورون ؛ لأن الله لم يَهْدهم ؛ لأنه سبحانه قد هداهم ودلَّهم جميعاً على طريق الخير ، ولكنهم هم الذين أخذوا طريق الكفر والظلم والفسوق.

واقرأ إن شئت قول الله عز وجل : ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ [فصلت]

فماذا صنعوا فى هدايته لهم : ﴿ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ ﴾ ، أى : أن الحق سبحانه بيَّن لثمود طريق الخير ، ولكنهم اختاروا الضلالة .

إذن : فهداية الدلالة للجميع ، وهداية المعونة للمؤمنين.

ثم يعطينا الحق سبحانه وتعالى صورة أخرى للمنافقين فيقول :

﴿ فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ ﴾

والفرح هو السرور من فعل تبتهج النفس به . والمخلَّفون هم الذين أخلفهم نفاقهم ، وتركهم رسول الله ﷺ فى المدينة وذهب إلى الجهاد . بعد أن جاءوه بالمعاذير الكاذبة التى قالوها ، وقد تركهم رسول الله ﷺ ؛ لأن الحق سبحانه قال :

﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾ ﴾ [التوبة]

ومن لا يريد أن يجاهد فى سبيل الله إن أخذته معك كرهاً ، يكون ضدك وليس معك . وسيشيع الأكاذيب بين المؤمنين ، ويحاول أن يخيفهم من الحرب ، وإذا بدأ القتال فهو أول من يهرب من المعركة . ويبحث عن مغارة أو حجر يختفى خلفه . إذن : فهو ليس معك ولكنه ضدك ؛ لأنه لن يقاتل معك ، بل ربما أعان عدوك عليك . وفى نفس الوقت هو يضر بالمسلمين ، ويحاول أن يشيع بينهم الرعب بالإشاعات الكاذبة .

ويُبيِّن الحق سبحانه وتعالى هنا فطرة رسول الله الإيمانية بأنه أذن لهؤلاء بعدم الخروج للجهاد مع أن عذرهم كاذب ؛ فجاء قوله : ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ والمقعد هو مكان القعود . والقعود رمز للبقاء فى أى مكان . والقيام رمز لبداية ترك المكان إلى مكان آخر ، والذين غزوا مع رسول الله ﷺ قاموا واستعدوا للقتال ، أما الذين تخلفوا فقد قعدوا ولم يقوموا رغبة فى البقاء فى أماكنهم .

ويقول تعالى : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ﴾ وحين نسمع كلمة ﴿ خِلافَ ﴾ نعرف أن مصدرها خالف خلافاً ؛ ومخالفة ؛ كما تقول : قاتل قتالاً ومقاتلة . وهى إما أن تكون مخالفة فى الرأى ، كأن تقول : فلان فى خلاف مع فلان ، أى : أن لكل منهما رأياً . وإما أن تكون فى السير ، كأن تقوم أنت لتغادر المكان ؛ ويخالفك زميلك أو من معك فيقعد ، أو تقعد أنت ، فيخالفك هو ويمشى .

والخلاف من ناحية الرأى هو عملية قلبية ، والخلاف من ناحية الحركة يشترك فيها القالب أو الجسد ، وهم حين فرحوا بالقعود بعد قيام رسول الله ﷺ والمؤمنين للجهاد ، فهذا دليل على أن مسألة القعود هذه صادفت هوى فى نفوسهم وارتاحوا لها . وبذلك خالفوا شرط الإيمان ؛ لأن الذين يحق لهم أن يتخلفوا عن الجهاد قد حددهم القرآن الكريم فى قول الحق سبحانه وتعالى :

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ (٩١)﴾ [التوبة]

وقوله : ﴿وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ (٩٢)﴾ [التوبة]

أى : أوضحت لهم أنك لا تملك ما يركبون عليه ، ليصلوا معك إلى موقع القتال [١] . وقد بيّن لنا الحق حال هؤلاء الذين لم يخرجوا مع رسول الله ﷺ بسبب هذه الأعذار فقال عنهم :

﴿ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ﴾ [التوبة]

إذن : فهؤلاء الذين تخلفوا بأعذار يملؤهم الحزن ، وتفيض أعينهم بالدمع ؛ لأنهم حُرموا ثواب الجهاد فى سبيل الله [٢] . أما الذين يفرحون بالتخلف عن الجهاد فهم منافقون .

وقوله سبحانه : ﴿ خِلافَ رَسُولِ اللَّهِ ﴾ نجد فيه أيضاً أن كلمة ﴿خلاف﴾ تستعمل أيضاً بمعنى «بعد» ، أى بعد رسول الله ، فما أن ذهب رسول الله ﷺ للغزوة قعدوا هم بعده ولم يذهبوا . وجلسوا مع الضعيف والمريض وأصحاب الأعذار الحقيقية ، وكذلك الذين لم يجد رسول الله ﷺ لهم دواب ليركبوها ، هؤلاء هم مَنْ تخلفوا . ويبيّن الحق سبحانه سبب تخلف المنافقين فيقول : ﴿ وَكَرِهُوا أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ .

أى : أنهم كرهوا أن يقاتلوا ، وكرهوا الجهاد . وليت الأمر قد اقتصر على هذا ، بل أرادوا أن يُثبِّطوا المؤمنين ويُكرِّهوهم فى القتال فى سبيل الله ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ فهم لم يكتفوا بموقفهم المخزى ، بل أخذوا فى تحريض المؤمنين على عدم القتال . وقد كانت هذه الغزوة «غزوة تبوك» فى أيام الحر . وكانت المدينة تمتلىء بظلال البساتين وثمارها ، بينما الطريق إلى

(١) سيأتى سبب نزول هذه الآيات عند تفسير الآيتين ٩١ ، ٩٢ من سورة التوبة .

(٢) عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال قال رسول الله ﷺ : « لقد خلفتم بالمدينة رجالاً ما قطعتم وادياً ولا سلكتم طريقاً إلا شركوكم فى الأجر حبسهم المرض » أخرجه مسلم فى صحيحه (١٩١١) وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٠٠) وابن ماجه فى سننه (٢٧٦٥) .

الحدود مع الروم طويلة . إذن : فهى غزوة كلها مشقة [١] .

وقال المنافقون للمؤمنين ﴿ لا تنفروا ﴾ ، والنفور هو كراهية الوجود لشيء ما . ويقال : فلان نافر من فلان ، أى : يكره وجوده معه فى مكان واحد . ويقال : فلان بينه وبين فلان نفور ، أى : يكرهان وجودهما فى مكان واحد . والذى يخرج للحرب كأنه نفر من المكان الذى يجلس فيه ذاهباً إلى مكان القتال . ويكون القتال والتضحية بالمال والنفس فى سبيل الله أحب إليه من القعود والراحة .

إذن : فقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ ﴾ أى : أنهم يريدون أن يعطوا لأنفسهم عذراً لعدم الخروج للجهاد ؛ لأن الجو حار وفيه مشقة . ولكنهم أغبياء ؛ لأنهم لو خافوا من الحر ومشقته ؛ وجلسوا فى الظل ومتعته ، لأعطوا لأنفسهم متعة زمنها قصير ليدخلوا إلى مشقة زمانها طويل .

ولذلك يقول الحق سبحانه وتعالى لرسوله ﷺ : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ فإن كانوا قد اعتقدوا أنهم بهروبهم من الحر قد هربوا من مشقة ، فإن مشقة نار جهنم والخلود فيها أكبر بكثير . والإنسان إن بُشِّر بأشياء تسره عاماً أو أعواماً ، ثم يأتى بعدها أشياء تسوؤه وتعذبه ، فهو بمعرفته بما هو قادم يعانى من الألم ولا يستطيع الاستمتاع بالحاضر ؛ لأن الإنسان يحاول دائماً أن يتحمل ؛ ليُؤَمِّن مستقبله . ولذلك تجد من يعمل ليلاً ونهاراً وهو سعيد ، فإذا سألته كيف تتحمل هذا الشقاء ؟ يقول : لأؤمن مستقبلى . إذن : فسرور عام أو أعوام تفسده أيام أو أعوام قادمة

---

(١) وقد سميت أيضاً بغزوة العسرة ، وذلك فى قوله تعالى : ﴿ لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ ﴾ [التوبة : ١١٧] . قال ابن كثير فى تفسيره (٢/ ٣٩٦) « قال قتادة : خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد ، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم وأقفلهم من غزوتهم » . ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ ابتداء .

فيها سوء وعذاب ، فماذا عن خلودهم فى النار ؟

ولكن هل قالوا : ﴿لا تَنفِرُوا فِي الْحَرِّ﴾ فى خواطرهم دون أن ينطقوا بهما ، أم قالوها لبعضهم البعض سراً ؟ ومن الذى أعلم رسول الله ﷺ ما قالوه ؟ نقول : قد يكون ذلك هو ما دار فى خواطرهم . وشاء الله أن يعلموا أنه سبحانه وتعالى يعلم ما فى نفوسهم . وشاء أن يفضح ما فى سرائرهم ، لعل هذا يُدْخل الخوف فى قلوبهم ، من أنه سبحانه مطلع على كل شيء ، فيؤمنوا خوفاً من عذاب النار .

ومثال هذا أن الحق حين أراد أن يمنع المشركين من حج بيته الحرام قال : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]

وكان المشركون حين يذهبون إلى الحج ينعشون اقتصاد مكة ، وكان الخير يأتى من كل مكان إلى مكة فى موسم الحج ، بل إنهم كانوا يقولون : إياكم أن تطوفوا بالبيت فى ثياب عصيتم الله فيها ، وكأن التقوى تملأ نفوسهم ! وحقيقة الأمر أنهم كانوا بعيدين عن التقوى لأنهم كانوا يعبدون الأوثان . وكانوا يقولون ذلك حتى يضطر الحجاج أن يخلعوا ثيابهم ويشتروا ثياباً جديدة ليطوفوا بها ، ومن لا يملك المال يطوف عارياً .

إذن : فقد كان الحج موسماً اقتصادياً مزدهراً لأهل مكة ؛ يربحون خلاله ما يكفى معيشتهم طوال العام ، فلما جاء البلاغ من الله سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا﴾ . فالخاطر الذى يأتى فى النفس البشرية ؛ وكيف سنعيش ؟ . هذا هو أول خاطر يأتى على البال ؛ لأنه سؤال عن مقومات الحياة ، والذى خلقهم عليم بما يدور فى خواطرهم . وإن لم يجر على ألسنتهم ، حينئذ جاء قول الحق سبحانه : ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ... ﴿٢٨﴾﴾ [التوبة]

إذن : فالله سبحانه وتعالى قد علم ما يدور فى خواطرهم ، فرد عليه قبل أن ينطقوه .

كذلك قول الحق سبحانه : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ والفقه هو الفهم الدقيق . فأنت حين تعرف شيئاً بسطحياته تكون قد عرفته، ولكنك إن عرفته بكل معطياته الخلفية تكون قد فقهته . وأنت إذا ذهبت للجهاد فى الحر قد تتعب ، ولكن إذا قعدت عن الجهاد سوف تكون عقوبتك أكبر وتعبك أشد .

إذن : فعلمك بشيء وهو الحر الذى ستواجهه إن خرجت للجهاد ، يجب ألا ينسيك ما غاب عنك ، وهو أن نكوص الإنسان عن الجهاد يدخله ناراً أشد حرارة ، يخلد فيها . ومعنى ذلك أنه لم يفقه ؛ لأنه علم شيئاً وغاب عنه أشياء .

ومن هذا المنطق القرآنى ، رد الإمام على كرم الله وجهه على القوم حينما دعاهم إلى الجهاد ضد الخوارج فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه سيم الخسف » .

ثم يقول بعد ذلك : « إن قلت لكم : اغزوهم فى الشتاء ، قلتم : هذا أوان قر وصر . . أى برد شديد . وإن قلت لكم : اغزوهم فى الصيف ، قلتم : أنظرنا - أى أمهلنا - حتى ينصرف الحر عنا ، فإذا كنتم فى البرد والحر تفرون ، فأنتم والله فى النار . يا أشباه الرجال ولا رجال »[1]

---

(١)من خطبة خطبها الإمام على عندما أغار سفيان بن عوف الأزدى على الأنبار ، فتقاعس المسلمون عن قتالهم فقال : « أما بعد ، فإن الجهاد باب من أبواب الجنة ، فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل ، وشمله البلاء ، ولزمه الصغار ، وسيم الخسف ، ومنع النَّصف » ثم قال : « فإذا أمرتكم بالسير إليهم فى أيام الحر قلتم : حمارة القيظ ، أمهلنا ينسلخ عنا الحر ، وإذا أمرتكم بالسير فى البرد قلتم : أمهلنا ينسلخ عنا القر ، كل ذا فراراً من الحر والقر . فإذا كنتم من الحر والقر تفرون ، فأنتم والله من السيف أفر ، يا أشباه الرجال ولا رجال ، ويا أحلام الأطفال وعقول ربات الحجال » انظر خطبته كاملة فى كتاب « خطب إمام البلغاء » بتحقيق : عادل أبو المعاطى . نشر دار الروضة - القاهرة .

وقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ أى : أنهم لو كانوا قد فرحوا وابتهجوا بأنهم لم يجاهدوا فى الحر ، فهم سوف يندمون كثيراً على ذلك ، مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾

والضحك هو انفعال [1] غريزى فطرى ، يحدث للإنسان عندما يقابل شيئاً يسره ، أو أحداثاً يجد فيها مفارقة لم يكن يتوقعها . أما البكاء فهو انفعال غريزى أيضاً تجاه أحداث تدخل الحزن أو الشجن ، وهو تذكر ما يحزن بالنسبة للإنسان ، وكلتاهما ظاهرتان فطريتان ، أى أنهما تحدثان بفطرة بشرية واحدة بالنسبة للناس جميعاً ، ولا دخل فيها للجنس أو اللون أو البيئة ، فلا يوجد بكاء روسى وبكاء أمريكى ، أو ضحك روسى وضحك إنجليزى ، أو ضحك شرقى وضحك غربى . ذلك أن الضحك والبكاء انفعال طبيعى موحد لا تؤثر فيه البيئة ولا الثقافة ولا الجنس . وقد أسنده الحق تبارك وتعالى لنفسه . فكما قلنا : إن الله سبحانه وتعالى وحده هو الذى يحيى ، وهو سبحانه وحده الذى يميت . فهو سبحانه وحده الذى يضحك ، وهو سبحانه وحده الذى يبكى . مصداقاً لقوله تعالى :

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ﴿٤٣﴾ وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ﴿٤٤﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ ﴾ [النجم]

---

(١) هناك فرق بين الانفعال والافتعال ؛ لأن الانفعال فطرة والافتعال صنعة ، فالانفعال الذى يظهر على وجه الإنسان سواء كان سروراً أو حزناً أو اهتماماً بشيء هو أمر غريزى فطره الله عليه استجابة لمؤثرات خارجية ، أما الافتعال فهو اصطناع الانفعال كأن يتكلف السرور فى مقام لا يقتضى هذا .